السيدة سكينة بنت الحسين

للأستاذ سعيد الديوه جي

(تتمة)

مزاهرها وتهكمها :

إنتهى الفرزدق من حجته ويمم شطر المدينة المنورة ليسلم على السيدة سكينة أملاً فى صلتها ورغبة فى ثنائها ليغيظ بهذا خصمه بل أكبر أعدائه « جريراً » . والفرزدق من الحزب العلوى ، طورد وسجن واضطهد بسبب تشيعه لهم . ولم يكتم هذا الحب الصادق لآل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى أمام الخليفة هشام . ولكن هذا لم يخلصه من انتقاد السيدة سكينة وتهكمها به . ولما مثل فى ندوتها سألته : من أشعر الناس ؟ — وهى تعلم مكانته من الشعر فهو أفخر الشعراء الأمويين وأمدحهم وأمتنهم أسلوباً وأجزلهم لفظاً — قال : أنا . قالت : كذبت . أشعر منك الذى يقول :

بنفسى من تجنبه عزيز ... علىَّ ومن زيارته لمام
ومن أمسى وأصبح لا أراه ... ويطرقنى إذا هجع النيام

ولا شىء يغيظ الفرزدق أكثر من تفضيل قرنه وخصمه الألد جرير عليه . بهت الفرزدق وأسقط فى يده . وماذا يصنع مع سكينة التى تريد أن تلعب بعقل هذا الشيخ ؟ قال لها : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . قالت : لا أحب فاخرج عنى . خرج الفرزدق يتعثر فى أذياله ، ويخشى أن يشيع هذا الخبر فيسمعه جرير ويتخذه حجة له عليه . وفى اليوم الثانى عزم على أن يعيد الكرة لعل الله يشرح صدر سكينة فتشمله بعطفها وتمن عليه بكلمة ثناء تجبر بها كسره . ولما مثل فى صالونها قالت له : من أشعر الناس ؟ قال: أنا . قالت : كذبت ، أشعر منك صاحبك حيث يقول :

لولا الحياء لهاج لى استعبار ... وزرت قبرك والحبيب يزار
كانت إذا هجع الضجيع فراشها ... كتم الحديث وعفت الأسرار

فقال لها : والله لئن أذنت لى لأسمعتك أحسن منه . فأمرت به فأخرج . ضاقت عليه الأرض بما رحبت فلا يدرى ماذا يعمل ويمن يلوذ . ولكنه لم يقطع أمله من صلتها وثنائها . فقصدها فى اليوم الثالث . ولما مثل فى صالونها ، سألته : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت . صاحبك أشعر منك حيث يقول :

إن العيون التى فى طرفها حَوَر ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

علم الفرزق بأن شعر جرير قد وقع فى قلبها لرقته وسلاسة ألفاظه وخلوه من الفحش والخبث ، فهو يمثل النفس الطاهرة الطيبة . عندئذ لجأ الفرزدق إلى التلطف والتوسل ، فقال لها : « يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن لى عليك حقاً عظيماً : خرجت من مكة إرادة السلام عليك فكان جزائى منك تكذيبى ومنعى من أن أسمعك » وعرّض لها بكلامه أن تهبه جارية وضيئة من جواريها أعجبته . فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية . وقالت : « يا فرزدق أحسن صحبتها فإنى آثرتك بها »

وأحاديثها مع عروة بن أذينة كثيرة . وهو من فقهاء المدينة ومحدثيها . وقد أخذ عنه الإمام مالك . كان من الأتقياء ولكن قلبه لم يخلص من الهوى . كان يحب وكان يعشق ولكن كان يستر حبه ويكتم هواه — ومهما حاول المرء كتم هواه فلا بد أن يظهر يوماً على لسانه

بينما كانت تسير سكينة بوادى العقيق رأت هذا الشيخ فمالت إليه بموكبها ووقفت عليه وقالت له : يا أبا عامر ، أنت الذى تزعم أن لك مروءة وأن غزلك من وراء عفة وأنك تقى ؟! قال : نعم . قالت : أفأنت الذى تقول :

قالت وأبثتها وجدى فبحت به ... قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها ... غطى هواك وما ألقى على بصرى

قال لها : نعم

قالت : « من حولى من الجوارى حرائر إن كان هذا خرج من قلب سليم » وكيف يخرج هذا الغزل الرقيق من قلب خال من الهوى وإن لصاحبه من حب الجمال ما جعله يتخذ له قصراً فى وسط العقيق عش الأدباء والظرفاء والمجان .

ومن تهكمها : أنها كانت فى مأتم فيه بنت لعثمان بن عفان . فقالت بنت عثمان مفتخرة : « أنا بنت الشهيد » فسكتت سكينة فقال المؤذن : « أشهد أن محمداً رسول الله » فالتفتت إلى بنت عثمان وقالت لها : « هذا أبى أم أبوك ؟ ! » فبهتت العثمانية وقالت : « لا أفخر عليكم أبداً » .

وكانت تسلك طريق الدعابة والمزح فى حياتها ، ونوادرها أكثر من أن تحصى

ومن ذلك أن لسعتها دبيرة . فقالت لها أمها مالك ؟ فضحكت وقالت : « لسعتنى دبيرة : مثل الأبيرة ، أوجعتنى قطيرة » .

وبعثت مرة إلى صاحب الشرطة : أنه قد دخل علينا رجل شامى فابعث إلينا بالشرط . فركب معهم وأتى إلى باب سكينة . فأمرت ففتح له . ثم أمرت جارية من جواريها فأخرجت إليه برغوثاً وقالت : « هذا الشامي الذى شكوناه » فانصرفوا يضحكون . ولعل أجمل مزحها كان مع أشعب خادمها ومضحكها . وكم لاق هذا المخنث من تنفيذ أوامرها الأمرين : تارة تأمر جواريها أن يطأن بطنه وطأ شديداً تكاد تخرج أمعاؤه منه . أو تأمرهن أن يخنقنه أو يسحبنه على وجهه ويلقى خارج الدار . أو تأمره أن يقلد أصوات الحيوانات فيموى كالهرة أو يهر كالكلب .

غضبت يوماً عليه فدعت حجاماً ليحلق لحيته . فقال له الحجام : انفخ شدقيك حتى أتمكن منك — وأشعب حتى فى مثل هذه الحالة يحاول أن يضحك سيدته — فقال للحجام : « أمرتك أن تعلمنى الرمز أو أن تحلق لحيتى ؟ ! » فضحكت وعفت عنه .

وغضبت عليه مرة أخرى فأمرت أن يتخذ بيت من عود ويوضع فيه بيض وتبن وأدخلت أشعب به . وحلفت ألا يخرج من البيت حتى يحضن البيض كله إلى أن يفقس . ففعل أشعب — وكلما دخل زائر إلى دار سكينة كان أشعب يقرقر مثل الدجاجة — حتى فقس البيض كله فراريج . وأمرت أن تربى الفراخ بدارها . وكانت تنسبهن إليه وتقول : « بنات أشعب »

تأثيرها فى المجتمع

ولم تقتصر شهرتها بين أهل عصرها فى العلم والأدب والفن بل كان لها تأثير شديد فى كل ما تفعله . فلم تظهر بزى إلا انتشر بين فتيات الطبقة الأرستقراطية وتمداهن إلى بقية الطبقات . ذلك لأن السيدة سكينة أول من ابتكره وظهر به . كما كانت تصفف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن منه . وصارت الجمة «السكينية» هى المتبعة فى تصفيف الشعر . ولم يقتصر هذا التقليد على النساء بل إن فتيان قريش أخذوا ينسقون شعورهم على مثالها . وكان عمر بن عبد العزيز إذا رأى رجلاً يصفف جمته « السكينية » جلده وأمر بحلق شعر رأسه .

وأما تنسيق ندوتها وما يجد فيها من رياش وأثاث ورياحين فكان حديث فتيات قريش . فما من فتاة إلا وتزور هذه الندوة لتنظر ما استجد بها مما أبدعته قريحة سكينة لتقلدها فى ذلك .

فإن السيدة سكينة هى سيدة نساء عصرها على الإطلاق . كانت أحسنهن عقلاً وأظرفهن وأعلمهن وأعلاهن مقاماً وأرفعهن أدباً . تجالس الأجلة من قريش ويسمى إلى مجلسها أصحاب العلم وأرباب الفن يستمعون إلى محاضرتها أو يلتمسون صلتها . كما كانت تطرح عليهم الأسئلة وتجادلهم بما يقولون وتنتقد آراءهم ولا تخشى فى الحق لومة لائم ؛ ولهذا نرى قاصديها يحسبون لها حساباً . هكذا تألق هذا النجم فى سماء المدينة وظل يهتدى به حتى سنة ١١٧هـ .

وفاتها

وفى صباح يوم شديد الحر فاضت روحها وانتقلت إلى جوار ربها . خرج النعش يتهادى بين الجموع المحتشدة والقلوب الخاشعة والعيون الدامعة . ولكنها « حتى على الموت لا تخلو من الحسد » فإن أمير المدينة خالد بن عبد الملك أمر أن يؤخروا الصلاة عليها حتى يحضر وجلس الناس حولها حتى العشاء ولم يحضر ؛ وغلبهم النعاس فأوقدوا حولها عوداً بأربعمائة دينار وصلوا عليها جماعات جماعات . وفى صباح اليوم التالى دفنوها ودفنوا معها العلم والأدب والفن .

أقفرت الدار من سكينة فلا شعراء ينشدون ، ولا علماء يتجادلون ، ولا رواة يحدثون ، ولا أدباء يحتكون .

« أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا
أخنى عليها الذى أخنى على لبد »

(الموصل) محمد الصباغ